

روزا لوکسمبورغ

1919-1870

قليات هن النساء اللواتي بلغن المجد الذي بلغته القائدة الشيوعية روزا لوكسمبورغ. كانت شخصيتها تتكون منذ شبابها الباكر في النضال على جبهات متعددة، الجبهة الفكرية والجبهة السياسية وجبهة العمل الثوري من أجل انتصار الإشتراكية. وظلت شخصيتها تكبر في تلك المعارك على امتداد حياتها على جبهاتها المتعددة. ولم تلبث أن انتمت، وهي في مطلع شبابها، إلى الإشتراكية فكرياً وبرنامج نضال. وخاضت سجالاتاً فكرياً وسياسياً مع كبار الإشتراكيين في الأممية الثانية من كارل كاوتسكي إلى إدوارد برنشتاين. وقادها حماسها الثوري إلى الإعتقال مرات عديدة، في وطنها الأصلي بولونيا وفي روسيا وفي ألمانيا. ولم تتردد في عز حماسها الثوري باسم الماركسية أن تدخل في سجال نقدي مع بعض أفكار ومواقف لينين. وكان من بين القضايا التي اختلفت فيها مع لينين موقفه من المسألة القومية وحق تقرير المصير. ومعروف أن المسألة البولونية كانت أحد عناوين تلك المسألة ليس في كتابات لينين وحسب، بل في كتابات ماركس بالذات، مضافة إليها المسألة الإيرلندية. كانت روزا تستند في معارضتها لحق تقرير المصير إلى الخشية من أن يؤدي التركيز عليه إلى تقديم غطاء للبرجوازية لكي تتابع باسم الديماغوجية القومية قهرها واستغلالها للطبقة العاملة. كانت تعتقد أن إقامة الدول القومية لا تمثل خطوة إلى الأمام، وأن اعتماد تلك السياسة من شأنه أن يعرقل الحفاظ على الإتحاد الأممي للبروليتاريا. انتقدها لينين على موقفها وكلف ستالين في عام 1913 بكتابة دراسة حول المسألة القومية يرد فيها على روزا. كانت سجالات روزا مع بعض سياسات ومواقف وأفكار لينين قد بدأت منذ مطلع القرن العشرين، قبل ثورة 1905 وبعدها، رغم وقوفها إلى جانبه وإلى جانب البلاشفة ضد المناشفة في أعقاب المؤتمر الثاني للحزب الإشتراكي الديمقراطي الروسي الذي عقد في عام 1903. ثم استأنفت نقدها للينين، بعد انتصار ثورة أكتوبر، في بعض مواقفه الفكرية والسياسية وفي بعض القرارات التي كان قد اتخذها. ومن بين تلك المواقف التي عارضتها روزا توقيع لينين لصالح برست ليتوفسك "المذل". كانت في موقفها ذاك تلتقي مع موقف تروتسكي من المعاهدة، وتلتقي معه في موضوعة الثورة الدائمة. وكان من بين قضايا

خلافها مع لينين في شكل خاص مسألة الديمقراطية في سلطة دكتاتورية البروليتاريا وفي حزب الطبقة العاملة. إذ اعتبرت أن حرية الرأي وحق الإختلاف ينبغي أن يظلا قائمين في ظل سلطة البروليتاريا وفي حياة الحزب، كحق شرعي لا يجوز المس به تحت أية ذريعة. لكن روزا كانت في كل سجالاتها مع لينين تعتبره قائداً ثورياً كبيراً. وكانت تعتبر انتصار ثورة أكتوبر حدثاً عظيماً يفتح الباب أمام تاريخ جديد للعالم. جاء ذلك النقد للينين في كراسها حول الثورة الروسية الصادر في عام 1918. في ذلك الكراس الذي تقيم فيه الثورة، تناقش في الآن ذاته لينين في موقفه من الديمقراطية في ظل دكتاتورية البروليتاريا. تقول روزا: "يقول لينين أن الدولة البرجوازية هي أداة لقمع الطبقة العاملة، وأن الدولة الإشتراكية هي أداة لقمع البرجوازية. وبهذا التعريف تكون الدولة الإشتراكية هي الدولة الرأسمالية مقلوبة على رأسها. إن هذا التصور التبسيطي للأمر يتغافل عما هو جوهري في المسألة. ذلك أن السيطرة الطبقية للبرجوازية لم تكن بحاجة لتعليم الشعب بكامله وتثقيفه سياسياً، أو أنها، على الأصح، كانت بحاجة إلى تحقيق ذلك على نطاق محدود جداً. أما بالنسبة إلى دكتاتورية البروليتاريا فإن تلك المهمة إنما تشكل العنصر الحيوي الذي لن يكون بالإمكان وجود هذه الدكتاتورية من دون تحقيق هذه المهمة... تكتسب الجماهير العمالية تجربة سياسية كبيرة خلال فترة جد قصيرة. وترتقي في تطورها بسرعة، من درجة إلى درجة أرقى، بفضل النضال المفتوح والمباشر من أجل السلطة... إن تروتسكي يناقض نفسه هنا، كما يناقض أصدقاءه ومناصريه. فكونه على حق فعلاً في ما يقول، ويعني تحديداً، بأنهم بالغائهم الحياة العامة قد أوقفوا أمام التجربة السياسية عناصر تكونها وشروط سيرها قدماً في طريق التطور، إلا أنه لا بد من الإعتراف بأن التجربة والتطور كانا، بالنسبة إلى البلاشفة، ضروريين حتى لحظة استيلائهم على السلطة. إذ أنهما يكونان بذلك، أي التجربة والثورة، قد بلغا ذروتها لتنتفي الحاجة إليهما. (خطاب لينين، "من المؤكد بوضوح أن روسيا أصبحت ناضجة للانتقال إلى الإشتراكية...")... غير أن الأمر هو على العكس من ذلك في الواقع. فالمهام الكبيرة، التي تصدى لها البلاشفة بشجاعة وتصميم، كانت تتطلب،

تحديداً، ثقافة سياسية للجماهير مكثفة إلى أقصى حد. كما كانت تتطلب تراكمًا للخبرات يستحيل تخطيه إطلاقاً من دون حرية سياسية... إن الحرية المقصورة على أنصار الحكومة دون سواهم، وعلى أعضاء حزب واحد، مهما كان عددهم كبيراً، ليست حرية. الحرية هي دائماً حرية من يفكر بشكل مختلف. وليس في هذا التأكيد تعصباً ما لـ"العدالة"، بل لأن عليه يتوقف كل ما من شأنه بعث الدراية والصحة والنقاء في الحياة السياسية، ولأن هذه الحياة تفقد كل فعاليتها عندما تصبح "الحرية" امتيازاً خاصاً لفريق معين".

وكانت روزا قد طرحت، عشية الحرب العالمية الأولى، مبدأ العفوية الإبداعية للبروليتاريا. ورفضت الفكرة التي تقول بضرورة وجود أقلية ثورية فاعلة تقرر بالنيابة عن الطبقة العاملة. ورأت أن بلوغ الإشتراكية كهدف يفترض خوض نضال طويل، قد تتراجع البروليتاريا خلاله أحياناً، لكنها ستنتصر في النهاية. كما خالفت لينين بخصوص بنية الحزب الثوري وطبيعة علاقاته الداخلية، معتبرة أن كل البنى التراتبية للتنظيم العمالي تميل موضوعياً إلى البيروقراطية والنزعة المحافظة.

أما لينين فقد قال عنها بعد استشهادها في أعقاب فشل الثورة التي قادتها مع رفيقيها كارل ليبكنخت وكلازا زتكين: "لقد أخطأت روزا... لكن على الرغم من كل أخطائها فقد كانت، وستظل بالنسبة إلينا، نسرًا مطلقاً. ولن يحفظ الشيوعيون في كل أنحاء العالم ذكراها باعتزاز فحسب. بل إن سيرة حياتها ومؤلفاتها الكاملة ستكون دليلاً لتثقيف أجيال من الشيوعيين في كل أنحاء العالم".

تميزت روزا لوكسمبورغ في كل حياتها بالشجاعة في عرض أفكارها. وظهر ذلك بوضوح في كتاباتها وفي خطبها وفي النضال الذي كانت تخوضه مع الجماهير من دون أن تخشى العواقب. وكانت تلك العواقب كثيرة في حياتها.

فمن هي روزا لوكسمبورغ ومن هم كارل ليبكنخت وكلارا زتكين وفرانش ميرينغ رفاقها التاريخيون في النضال الفكري والسياسي؟

ولدت روزا لوكسمبورغ في عام 1871 في قرية صغيرة في جنوب شرق (مملكة) بولونيا. كانت أصغر أخواتها وأخوانها الخمس. عندما بلغت روزا العامين من عمرها انتقلت العائلة إلى وراصو. وفي الخامسة من عمرها أصيبت بمرض أقعدها عاماً كاملاً في السرير. وعولجت من المرض في شكل خاطئ. وظلت تعاني من آثار ذلك الخطأ الطبي على امتداد حياتها. إذ صارت بسبب الآثار التي ولدها ذلك الخطأ تمشي عرجاء. أنهت في الثالثة عشرة من عمرها المرحلة الإبتدائية من دراستها. وتخرجت في عام 1887 بتفوق. لكنها حرمت من الميدالية الذهبية التي كانت تعطى للمتفوقين. وكان ذلك لسببين: السبب الأول هو كونها تنتمي إلى عائلة يهودية، وكونها تدرس في مدرسة روسية. أما السبب الثاني فيعود لكونها قد بدأت تمارس دور الفتاة المشاكسة. ولأنها كانت شديدة السرعة في التأثر بالأحداث الجارية في وطنها بولونيا فقد سارعت، وهي في المرحلة الثانوية من دراستها، للانضمام إلى إحدى خلايا الحزب البروليتاري. وبعد تخرجها من المرحلة الثانوية من دراستها قررت البقاء في المنزل لمدة عامين. وكانت تمارس خلال تلك الفترة نشاطها الثوري السري وتعمق وتوسع في الآن ذاته ثقافتها، مستفيدة من كون والدتها قد علمتها اللغة الألمانية التي كانت تتقنها إلى جانب لغتها الأم البولونية. وكانت في السادسة عشرة من عمرها حين انتسبت إلى الحزب البروليتاري البولوني. وكان ذلك الحزب في مبادئه وفي طرائق عمله أكثر تطوراً من الحركة الثورية الروسية التي كانت في بداياتها قد اتخذت طابع عمل إرهابي مغامر. لكن الحزب البروليتاري واجه ضربة كبيرة في عام 1886 بعد أربعة أعوام من تأسيسه (1882). إذ أهدمت السلطات أربعة من قادته. وأدخلت ثلاثة وعشرين منهم في السجن لمدة طويلة مع الأشغال الشاقة. وإذ اكتشف أمر روزا في عام 1889 مناضلة في صفوف ذلك الحزب وأصبح اعتقالها وشيكاً قررت ترك

بولونيا لمتابعة دراستها في إحدى دول أوروبا الغربية. غادرت وارصو في عربة محملة بالقش. اختبأت داخل كومة من القش، واجتازت الحدود من دون أن يكشف أمرها. وحطت رحالها في زوريخ. وانتسبت إلى إحدى جامعاتها في فرع الرياضيات والعلوم الطبيعية. لكنها تحوّلت بعد بضعة أعوام من الدراسة في ذلك الفرع إلى فرع آخر هو كلية الحقوق. وأنهت دراستها في عام 1897. وحازت على الدكتوراه في العلوم السياسية بأطروحتها التي عالجت فيها قضية التطور الصناعي في بولونيا. وعلى امتداد فترة دراستها في الجامعة كانت تعاني من التمييز ضد المرأة الذي كان سائداً في ذلك الحين. واعتبر حصولها على الدكتوراه في تلك الشروط عملاً غريباً ونادراً. ولاحقها التمييز إلى برلين عندما انتقلت للعمل فيها. إذ وجدت صعوبة كبيرة في استئجار منزل خاص بها.

لم تكن السنوات التي أمضتها روزا في زوريخ مقتصرة على دراستها الجامعية. لقد أقامت علاقات مع المهاجرين الثوريين الروس. وكانوا كثير. وكان الفيلسوف الروسي بليخانوف من أكثرهم حضوراً. واندمجت روزا مع تلك المجموعة الثورية من الماركسيين. وتابعت بشغف المناقشات السياسية التي كانت تحفل بها الاجتماعات التي كانوا يعقدونها. وتابعت قراءاتها في الأدبيات الماركسية. وبسرعة فائقة أصبحت تمتلك معرفة واسعة بالماركسية. وصارت تعتبر نفسها مناضلة ذات مرجعية ماركسية. وبدأت تشارك في المناظرات والسجلات مع قادة أحزاب الأممية الثانية. وكان وطنها بولونيا هو مركز اهتمامها السياسي كمناضلة إشتراكية. وفي عام 1892 شاركت في تأسيس الحزب الإشتراكي البولوني. وصارت شخصية مرموقة في الحزب. وساهمت في تحرير صحيفته. ومثلته في مؤتمر الأممية الإشتراكية الذي عقد في عام 1893. لكنها سرعان ما دخلت في جدال وخلاف حاد مع القادة الرئيسيين للحزب حول الموقف من المسألة القومية البولونية. إذ كانت ترى أن استقلال بولونيا عن روسيا سيقود الطبقة العاملة البولونية إلى الوقوع تحت سلطة البرجوازية التي كانت ستستخدم القومية البولونية كغلاف لسيطرتها ولتحكمها. وقادها

موقفها ذلك إلى الخروج من الحزب الإشتراكي البولوني. فأستت مع آخرين من أنصارها الحزب الإشتراكي الديمقراطي لمملكة بولونيا. وهو الحزب الذي أصبح بعد خمسة أعوام من تأسيسه يحمل اسم الحزب الإشتراكي الديمقراطي لبولونيا وليتوانيا. عاشت روزا مع ليو يوغيش أحد قادة الحزب الإشتراكي الديمقراطي البولوني من دون زواج على امتداد خمسة عشر عاماً. وظلت تربط بينهما علاقة عميقة على امتداد حياتهما، برغم ابتعادهما في أماكن إقامتهما وفي ميادين عملهما. وغادرا الحياة كلاهما شهيدين بالطريقة ذاتها.

لم تكن روزا تعنى بالعمل التنظيمي وبكل ما يتصل به من أمور. كانت تترك تلك الأمور لرفيقها ليو يوغيش الذي كان يحب البقاء بعيداً عن الأضواء. أما هي فكانت تهتم بالعمل السياسي بأشكاله المباشرة، في الخطابة وفي السجلات الفكرية وفي كتابة المقالات السياسية والنظرية. وقد أكسبتها نشاطاتها في تلك الميادين شهرة واسعة في أوساط الحركة الإشتراكية.

بعد انتهاء دراستها في عام 1897 انتقلت روزا إلى ألمانيا. وانتسبت إلى الحزب الإشتراكي الديمقراطي الألماني. وصارت تكتب في صحف الحزب. وأصبحت أحد المحررين الأساسيين في مجلة الحزب النظرية "الأزمة الحديثة". وكانت تعبّر بوضوح وبجرأة عن أفكارها التي كانت مقتنعة بها وواقفة من صحتها. ولم يستطع كاوتسكي بشخصيته القوية المهيبة ومن موقعه كرئيس تحرير للمجلة أن يغير أياً من آرائها ومن أفكارها. وإذ واجهتها مشكلة الجنسية الألمانية خلال إقامتها فقد قررت الزواج (صورياً) من صديقها الألماني غوستاف لوبك. وحصلت بذلك الزواج على الجنسية الألمانية. لكنهما افترقا بعد ذلك بخمسة أعوام. وبعد عامين من طلاقها من لوبك التحق بها صديقها القديم يوغيش.

كانت روزا خلال وجودها في ألمانيا تعاني من صراع داخلي بين اضطرارها للبقاء في ألمانيا وبين بعض الصعوبات التي كانت تواجهها في حياتها الخاصة وفي علاقتها بالحزب الإشتراكي الديمقراطي الألماني. لكن ذلك الصراع الداخلي عندها لم يمنعها من متابعة العمل الثوري على طريقته ووفق قناعاتها الفكرية. كان نشاطها يزعج قادة الحزب الإشتراكي الديمقراطي الألماني. لكنها لم تستسلم ولم تغير من قناعاتها الفكرية ومن مواقفها السياسية. فاقترح عليها قادة الحزب العمل في المنظمة النسائية ليتخلصوا من مضايقاتها لهم. رفضت الإقتراح رغم اقتناعها بأهمية العمل في ذلك الميدان. إذ اعتبرت أنها مؤهلة للعمل في النشاط الأساسي للحزب الذي يرمي إلى تحرير المرأة وتحرير الطبقة العاملة من سلطة وتسلط الرأسماليين. ودعمت صديقتها كلارا زتكين في نشاطها داخل المنظمة النسائية.

وهكذا استمرت روزا على امتداد الفترة التي كانت قد أصبحت فيها مناضلة ثورية يسارية الإتجاه، تمارس نشاطها السياسي وتدافع عن أفكارها بالشجاعة التي تميزت بها. وحين قامت ثورة 1905 في روسيا اعتبرتها بداية مرحلة تاريخية جديدة في النضال الثوري ضد الطبقة الرأسمالية، تمهد الطريق لانتصار البروليتاريا في إقامة سلطتها. ودخلت في سجلات حادة مع قادة أحزاب الأممية الثانية، مع كاوتسكي خصوصاً، قبل أن يدخل لينين في السجال معه ويؤلف الكتاب الذي يتهمه فيه بخيانة قضية الإشتراكية. وهو الكتاب الذي يحمل اسم "الثورة البروليتارية والمرتد كاوتسكي".

شاركت روزا في عام 1907 في مؤتمر شتوتغارت للأممية الإشتراكية. وتحدثت في المؤتمر باسم الحزبين البولوني والروسي، معلنة بوضوح موقفاً ثابتاً ضد الحرب الإمبريالية. وكانت قد بدأت منذ عام 1905 تتمايز في مواقفها عن مواقف قادة أحزاب الإشتراكية الديمقراطية الذين كان كاوتسكي منظرهم الأكبر. وأصدرت في عام 1913 كتابها المهم "التراكم الرأسمالي، أو مساهمة في نقد الإقتصاد الإمبريالي" الذي اعتبره المؤرخ الماركسي



الألماني رفيق روزا فرانش ميرينغ من أقرب الأعمال الماركسية إلى كتاب "رأس المال" لماركس. تابعت روزا نشاطها السياسي استناداً إلى أفكارها التي أغنتها في كتاباتها الفكرية. ومع بداية عام 1914 التي اندلعت فيها الحرب وجهت نداءً إلى الجنود الألمان للتمرد على قياداتهم العسكرية والإمتناع عن الذهاب إلى القتال. فقررت السلطات اعتقالها. فردت على ذلك القرار بالقول: "إذا كانوا يريدوننا أن نقتل أخواننا الفرنسيين أو سواهم فإننا نقول لهم: لا وألف لا بأية حال". وخلال محاكمتها أُلقت كلمة أدانت فيها بقوة الحرب الإمبريالية. وقد نشرت كلماتها فيما بعد تحت عنوان "السلطة العسكرية وموقف الطبقة العاملة من الحرب". وحُكمت بالسجن لمدة عام. ولم يتم اعتقالها على الفور. وفي أعقاب التصويت على ميزانية الحرب في البرلمان وتصويت ممثلي الحزب الإشتراكي الديمقراطي الألماني لصالح الميزانية انسحبت روزا مع كارل ليبكنخت وميرنغ وكلاهما زتكين وآخرين من الحزب وأسسا عصابة سبارتاكوس في عام 1916. وانتخبت روزا رئيسة للعصابة. وبدأت العصابة على الفور تتشط بكل الوسائل ضد الحرب تحت شعار التآخي بين الشعوب. وسيّرت مظاهرات ووزعت منشور في كل الأمكنة وفي وسط الجنود تدعو إلى رفض الحرب وإلى الوقوف ضد مطلقها.

استمرت روزا في نضالها الفكري والسياسي خلال الحرب العالمية الأولى وحتى نهايتها. وكان يشاركها في معاركها رفيقها كارل ليبكنخت. وقد برز اسم ليبكنخت في شكل خاص مع بداية الحرب في عام 1914 في المعركة التي خاضها إلى جانب روزا لوكسمبورغ ضد قادة أحزاب الأمم المتحدة حين وافقوا حكومات بلدانهم على الدخول في الحرب، وصوتوا كل منهم في برلمان بلده على الميزانيات الحربية. وكان من بين أولئك القادة في الأحزاب الإشتراكية الديمقراطية قادة الحزب الإشتراكي الديمقراطي الألماني. وقد أدى موقف ليبكنخت المعارض للحرب والمعارض لموقف أحزاب الأمم المتحدة إلى اتساع شهرته. ولقيت مواقفه ترحيباً حاراً من لينين ومن البلاشفة. في حين وجهت إليه انتقادات

حادثة من قبل الحزب الإشتراكي الديمقراطي الألماني بعد انشاقه مع روزا لوكسمبورغ وتشكيل "عصبة سبارتاكوس"، وانتهما بالعمل على تدمير وحدة الحزب. فأطلق ليكنخت رداً على تلك التهمة كلمته الشهيرة: "الوحدة! من هو مؤهل للإستماتة من أجلها أكثر مني؟ أعني الوحدة التي تعطي الطبقة العاملة القدرة على إنجاز رسالتها التاريخية. كلا، ليست كل وحدة تعني القوة. فالوحدة بين الذئب والحمل تجعل من الحمل وجبة شهية للذئب. إن القوى التي تتحرك في الإتجاه الواحد هي التي تعزز الوحدة. ونحن إنما نسعى لتوحيد القوى التي تتحرك في نفس الإتجاه". ظل ليكنخت ثابتاً في موقفه من دون هوادة. واستمرت الحرب واستمر النضال ضدها بقيادة عصبة سبارتاكوس. وكان يتعاضم الموقف ضد الحرب في أوساط العمال وفي أوساط الجنود على الجبهة الذين كانت الهزيمة تلاحقهم على مختلف الجبهات. وما أن انتصرت الثورة في روسيا بقيادة البلاشفة، وعلى رأسهم لينين، حتى عمت المظاهرات العمالية في مختلف أرجاء ألمانيا ترحيباً بالثورة ورفضاً للإستمرار في الحرب. وفي شهر تشرين الثاني من عام 1918 أعلن جنود البحرية في مينائي كيهل وفولهم سهافن العصيان ضد قياداتهم العسكرية. وانتشرت حالات العصيان في أرجاء البلاد مترافقة مع الإضرابات والمظاهرات التي شارك فيها مئات الألوف من العمال في كل أرجاء البلاد. ولم تمض أيام على تلك الحركة حتى أجبر القيصر على التنحي، واستقالت حكومته وانتصرت ثورة العمال والجنود مع انتهاء الحرب. وأعلنت الجمهورية. وتشكلت في عدد من المناطق مجالس من العمال والجنود فيما يشبه سلطة حكومية. لكن تلك المجالس كانت محدودة الإنتشار. وكانت المشاركة فيها محدودة أيضاً.

أدى انتصار الثورة إلى ما يشبه ازدواجية في السلطة. فمن جهة كان مجلس مفوضي الشعب يضم ثلاثة إشتراكيين من تيار الأغلبية وثلاثة إشتراكيين مستقلين. ومن جهة ثانية كانت اللجنة التنفيذية لمجالس العمال والجنود مكلفة بمراقبة عمل مجلس المفوضين. وشيئاً فشيئاً راح ميزان القوى بينهما يميل لصالح الأول. وحسم النزاع بين

الحكومة الإشتراكية-الديمقراطية والقوى الثورية خلال شتاء وربيع عام 1919، وانتهى بانتصار القوى التي تريد بقاء "النظام". في الثلاثين من شهر كانون الأول 1918 عقد في برلين مؤتمر ضم 83 عضواً من عصابة سبارتاكوس و 29 عضواً من "الراديكاليين اليساريين". ومع أنه كان هناك إجماع على الانفصال عن صفوف الإشتراكية الديمقراطية، برزت بين المندوبين خلافات شديدة. فروزا لوكسمبورغ كانت تفضل أن يحمل الحزب الجديد اسم "إشتراكي" بدلاً من "شيوعي". كما كانت من أنصار المشاركة في انتخابات الجمعية التأسيسية. وكانت ترى أن الظروف غير ناضجة لإعلان الإضراب. إلا أن مواقفها بقيت تعبر عن رأي أقلية داخل المؤتمر. وبتشجيع من ليبكنخت أعلن الإضراب العام في السادس من شهر كانون الثاني من عام 1919 مع إعلان تأسيس الجمهورية الإشتراكية. فسارع أقطاب الحزب الإشتراكي الديمقراطي إلى قطع الطريق الذي يقود الثورة في الإتجاه النقيض لمواقفهم القديمة ولمصالحهم الجديدة. أدرك ليبكنخت في ضوء ذلك التحرك لأقطاب الحزب الإشتراكي الديمقراطي أن الوضع لم يكن ملائماً لدعوته. واعتبر أن الثورة المضادة قد بدأت تجمع قواها للإنقضاض على الثورة. وكانت روزا لوكسمبورغ في السجن في الوقت الذي كان يتابع ليبكنخت معركته. وحين خرجت من السجن خطأته على مواقفه المتهورة والمتسرفة. ولم يتأخر لجوء السلطة إلى القمع. واستمرت المواجهات في برلين حتى الثاني عشر من شهر شباط. وفي الخامس عشر من الشهر ذاته جرى توقيف روزا لوكسمبورغ وكارل ليبكنخت وتم إعدامهما. ولم تنجح عصابة سبارتاكوس، على الرغم من قدراتها التنظيمية، في الانتقال من مستوى إثارة القلاقل إلى مستوى الإنتفاضة الثورية.

أما كلارا زتكين فقد كانت منذ مطالع شبابها نشيطة في الدفاع عن حقوق المرأة في المنظمة النسائية. وساهمت في نشر الوعي في صفوفهن. وكانت تصدر مجلة اسمها "المساواة". وكانت تلك المجلة أدواتها الأساسية في الدفاع عن حقوق المرأة، وفي عرض

أفكارها. وقد لاحقتها السلطات بسبب نشاطها فلجأت إلى زوررخ. وانتسبت منذ وقت مبكر إلى الحزب الإشتراكي الديمقراطي الألماني. وظلت تمارس نشاطها في صفوفه حتى عام 1917. وشاركت مع روزا لوكسمبورغ وكارل ليبكنخت في تأسيس عصبة سبارتاكوس. وناضلت معهما وإلى جانبهما. لكنها لم تلق المصير ذاته. واستمرت تناضل في الرايخستاغ ممثلة الحزب الشيوعي الألماني حتى وفاتها في عام 1933. وكانت تعلن بوضوح وبشجاعة مواقفها المعادية للفاشية محذرة من مخاطرها على ألمانيا وعلى أوروبا والعالم. وكان ذلك العام بالذات البداية الحقيقية لانتهيار الجمهورية الألمانية لصالح طلائع الحزب النازي الذي لم يتأخر في الإستيلاء على مقاليد السلطة وعلى المجتمع وعلى ألمانيا برمتها. وفور وصول الحزب النازي إلى مواقع القرار تحوّلت ألمانيا إلى نقيض ما كانت عليه بالكامل في ظل الجمهورية. وبدأت هستيريا الإعداد للحرب، فيما يصفه بعض المؤرخين بالإنقام لهزيمة ألمانيا في الحرب العالمية الأولى، وفيما يشبه تقادياً بالحرب للنائج الكارثية التي كانت الأزمة المالية العالمية تهدد بها القارة الأوروبية برمتها. وكان قد اتخذ الحزب النازي لنفسه اسم الحزب القومي الإجتماعي، واتخذ الصليب المعكوف علماً له. وبدأ يصفى حسابه مع الإشتراكيين بمختلف أجنحتهم، الإصلاحية المحافظة منها واليسارية الشيوعية على وجه الخصوص، مستخدماً في ذلك أبشع الأشكال وأكثرها همجية.

بعد الكارثة المتمثلة بالحرب وبهزيمة ألمانيا فيها طرحت أسئلة كثيرة حول الأسباب التي أدت إلى ذلك التحول السريع في ألمانيا من الجمهورية الديمقراطية إلى النظام النازي. وبرغم أن كثرة من الأسباب كانت وراء ذلك التحول، إلا أن من المؤكد أن قسماً كبيراً من المسؤولية عما حدث قبل ذلك التاريخ بالذات بعد انتصار الجمهورية إنما يعود إلى الإنقسامات والنزاعات التي سادت داخل الحركة الإشتراكية بين جناحيها الأساسيين الحزب الشيوعي والحزب الإشتراكي الديمقراطي.

مسيرة روزا لوكسمبورغ في النضال من أجل انتصار أفكارها الإشتراكية تشكل بالنسبة إلى كل الطامحين للتغيير في بلدانهم نموذجاً رائعاً نادر المثال. وقد اختارت لنفسها أدوات عمل متعددة تحقيقاً لأفكارها الإشتراكية التي كونت شخصيتها منذ مطالع شبابها. وكان من بين ما اختيرت للعمل فيه ووافقت عليه بعد تردد وتفكير مدرسة الحزب التي أسسها فيلهلم ليبكنخت صديق كارل ماركس والد كارل ليبكنخت. وقد درست في المدرسة مادة الإقتصاد السياسي كما فهمته وحددت أصوله في كتابها الآنف الذكر. وقد برعت في العمل في المدرسة عندما اكتشفت أهميتها النظرية والسياسية والعملية. وناضلت من أجل أن يكون لتلك المدرسة دورها في تكوين مناضلين ثوريين. وقالت لطلابها ذات مرة: "لقد أدى نشاطي في مدرسة الحزب إلى إزالة القسم الأكبر من الشكوك التي راودتني في البداية حول أهمية هذا العمل. لقد قادتني علاقاتي مع الطلاب في المدرسة إلى الإقتناع بأهمية هذه المدرسة الجديدة وإعطائها حق قدرها. وقلت لنفسي باقتناع تام: إن لدي شعوراً عميقاً بأننا خلقنا في المدرسة شيئاً جديداً لم ندرك بعد كل النتائج المترتبة عليه، شيئاً جديداً سيكون مفيداً وثميناً بالنسبة إلى الحزب..". وأعلنت لهم أن لديها انتقادات وملاحظات على البرنامج. وكانت في مقدمة ما اعتبرته أساسياً في المدرسة هو تخريج مناضلين إشتراكيين. لذلك طلبت أن يكون في البرنامج إضافة إلى أمور أخرى دراسة تاريخ الحركة الإشتراكية. وكانت تشغلها إلى جانب ذلك مسألة مهمة تتعلق بمستقبل الطلاب بعد تخرجهم، إلى أين سيذهبون. لذلك أصرت على أن يحدد لهم الحزب ميادين عملهم كل منهم في الميدان الذي يخططه الحزب. وهكذا يظهر كم كانت روزا لوكسمبورغ منذ البدايات أمينة للشعار الذي أطلقته وصار رفيقها الدائم: "هيا إلى العمل!".

أما في الميدان الفكري فقد تميزت روزا بالجرأة في طرح أفكارها، حتى ولو كان يقودها ذلك إلى الإختلاف مع كبار عصرها من قادة الحركة الإشتراكية، بمن فيهم لينين بالذات الذي كان موقع تقديرها الكبير. وكانت تعتبر أن من حقها أن تقرأ أفكار مؤسسي الإشتراكية

العلمية في الزمن الجديد وفي شروطه في شكل مختلف عن الزمن الذي وضعت فيه تلك الأفكار. وكانت مبدئية وقاطعة مع أية فكرة تؤدي إلى الإصلاحية. واعتبرت أن الجذرية في الثورة هي الأصل والأساس.

لم تبدع روزا نسقاً فلسفياً خاصاً بها. إذ هي بقيت تعتقد بسلامة الماركسية من حيث المبدأ. لكن ماركسيته كانت ماركسية إبداعية. كانت تعتبر أن مبادئ الماركسية ليست جامدة. ومع أن ماركس قد أخطأ في بعض التفاصيل، كما تقول، لا سيما فيما يتعلق بموعد انهيار الرأسمالية، إلا أن مبادئه تظل راهنة. وقد حاولت أن تطور بعض أفكار ماركس وانجلز في مسألتين: تأثير عامل العفوية وتأثير عامل الوعي، والعلاقة المتبادلة بين هذين العاملين في إطار حركة الجماهير، والتداخل بين التطور والثورة في مجرى حركة التاريخ. وحول النقطة الأخيرة دار سجال بينها وبين إدوارد برنشتاين خلال عامي 1898 و 1899. أدانت مواقفه التحريفية في مؤتمر هانوفر الذي عقد في عام 1899. واعتبرت أن النضال ضد أصحاب العمل لا يمكن أن يتم باللجوء إلى أساليب نقابية تقليدية. ورأت أن النقابات يجب ألا تكون هدفاً بحد ذاته كشكل لتنظيم جماهير العمال، محذرة من أن يشكل تأسيس النقابات عائقاً أمام حرية تحركات العمال الثورية. وكانت تعتبر أن الإشتراكية لا تولد عفوية من الصراع الطبقي الذي تخوضه الطبقة العاملة تلبية لحاجاتها اليومية. بل هي تولد نتيجة تفاقم تناقضات الرأسمالية من جهة، وامتلاك الطبقة العاملة الوعي بضرورة الثورة الإشتراكية من جهة ثانية. وكانت روزا قد كتبت كراساً بعنوان "أزمة الإشتراكية الديمقراطية" صدر في عام 1916، حلت فيه دور الجماهير في التاريخ وتأثيرها على تطور الأحداث والعلاقة الديالكتيكية بين سلوك الطبقة العاملة السياسي والوظيفة التي يجب أن يضطلع بها التنظيم الذي يمثلها. ومع أن كارل كاوتسكي شاركها نقدها لبرنشتاين، إلا أن خلافها معه برز فيما بعد حول موضوع الإضراب العام.

وأياً كان الموقف قديماً وفي الزمن الراهن من أفكار ومواقف روزا لوكسمبورغ فإنها بالتأكيد ستظل منارة في تاريخ الحركة الإشتراكية في مراحلها المختلفة، وستظل نموذجاً للقائد الثوري.

وكما أشرت في سياق الحديث عنها فإنها لم تكن لوحدها في خضم معاركها التي قادت إلى السجن مرات عديدة، ثم إلى حتفها في آخر المطاف. بل كان إلى جانبها، كما أشرت إلى ذلك، ثلاثة من كبار قادة الحركة الإشتراكية الألمانية المعادين للحرب والمناضلين بشجاعة نادرة ضد الإنحرافات اليمينية داخل تلك الحركة. أول هؤلاء الثلاثة هو كارل ليبكنخت (1871-1919). وهو ابن القائد الإشتراكي الديمقراطي فيلهلم ليبكنخت، صديق كارل ماركس. كان محامياً مجازاً في القانون. انتسب في عام 1900 إلى الحزب الإشتراكي الديمقراطي الألماني. انتخب رئيساً للإتحاد العالمي للشبيبة الإشتراكية بين عامي 1907 و1910. جاهر دوماً باتجاهه المعادي للنزعة العسكرية الألمانية. انتخب نائباً في البرلمان البروسي عن مقاطعة بروسيا وهو يشهر موقفه المناهض للحرب مختلفاً بذلك مع سياسة كتلة حزبه الإشتراكي الديمقراطي في الرايخستاغ الألماني. شارك في تأسيس مجموعة "الأممية" التي تحولت لاحقاً إلى "عصبة سبارتاكوس" مع روزا لوكسمبورغ. طرد من عضوية كتلة الحزب في الرايخستاغ خلال الحرب العالمية الأولى في عام 1916 واعتقل. ولم يفرج عنه إلا في الثالث والعشرين من شهر تشرين الأول من عام 1918 بموجب العفو العام. أصدر فور خروجه من السجن جريدة "الراية الحمراء" لسان حال "عصبة سبارتاكوس" بالتعاون مع روزا لوكسمبورغ التي كانت ما تزال في السجن. وبادر إلى إعلان "الجمهورية الإشتراكية الحرة" في التاسع من شهر تشرين الثاني من عام 1918 من على شرفة القصر الحكومي. وجاء ذلك الإعلان بعد ساعتين من إعلان فيليب شايديرمان الإشتراكي الديمقراطي عن قيام "الجمهورية الألمانية" من على شرفة الرايخستاغ الألماني. وفي ذلك اليوم بالذات خرجت روزا من معتقلها والتحققت فوراً في

تحرير جريدة "الراية الحمراء" إلى جانب كارل ليبكنخت. ولم تتردد في نقدها لبعض مواقفه المتسارعة في كيفية إدارة الصراع على مستقبل الثورة في ألمانيا. وشارك القائدان في الثلاثين من شهر كانون الأول من العام ذاته (1918) في المؤتمر التأسيسي للحزب الشيوعي الألماني "بصفته وريثاً شرعياً لعصبة سبارتاكوس. لكن الحزب فُمع وألقي القبض على القائدين في الخامس عشر من شهر كانون الثاني من عام 1919. أعدم كارل رميةً بالرصاص وقضت روزا تحت التعذيب. وألقي جثمانهما في إحدى الأقبية النهرية في برلين. وعثر على جثتيهما في الحادي والثلاثين من شهر أيار 1919.

أما القائد الثاني بين أولئك الثلاثة الكبار فهو فرانث ميرنغ (1848-1919). وقد قاده حزنه الشديد على إعدام رفيقيه كارل ليبكنخت وروزا لوكسمبورغ، والمرض الذي كان يعاني منه إلى الموت السريع بعد أيام معدودات من ذلك الحدث المريع. كان ذلك في الثالث والعشرين من شهر كانون الثاني. كان ميرنغ صحفياً لامعاً. وكان من أكثر الصحفيين الإشتراكيين الديمقراطيين شهرة. وكان مؤرخاً مميزاً في قراءته لتاريخ الحركة الإشتراكية الديمقراطية الألمانية وإعادة صياغته.

كان ميرنغ من رفاق فيلهلم ليبكنخت وأوغست بابل من رعييل القادة الأوائل في الحركة الإشتراكية الديمقراطية. كما كان رفيقاً للرعييل الثاني من أولئك القادة المتمثل بكارل ليبكنخت وروزا لوكسمبورغ وكلاهما زكينا مشاركاً إياهم في الصراع ضد الإنحراف اليميني داخل قيادة الحزب الإشتراكي الديمقراطي الألماني.

غادر الثلاثة الحياة. أما كلارا زكينا (1857-1933) فقد نجت من الإعتقال وتابعت نضالها باسم الحزب الشيوعي داخل جمهورية فايمار. وكانت قد انتخبت في عام 1920 عضواً في الرايخستاغ. وفي داخل وفي قلب الرايخستاغ استمرت تتاضل ضد



النزعة النازية التي كانت قد بدأت مظاهرها تبرز في ألمانيا. وكانت إلى جانب رفيقها منذ البداية في تأسيس عصبة سبارتاكوس وفي تأسيس الحزب الشيوعي الألماني.

تعود صلاتها الأولى مع الحركة الإشتراكية الديمقراطية إلى فترة دراستها بين عامي 1874 و 1878 في معهد للتربية في مدينة لايبزيغ حيث كانت تشارك في العديد من النشاطات التي كان يقيمها الثوريون في حلقاتهم. وكان من بينهم الثوري الروسي أوسيب زتكين. رافقته وحملت كنيته من دون زواج. وأنجبا ولدين. وظلا يتنقلان بين ألمانيا وسويسرا والنمسا إلى أن استقرا في باريس. في عام 1889 توفي أوسيب زتكين. واستمرت كلارا في نشاطها في باريس. وساهمت في تأسيس الأهمية الثانية في عام 1889 التي قادها انجلز. وألقت في المؤتمر التأسيسي خطاباً أكدت فيه على دور المرأة في النضال الطبقي وعلى أهمية النضال من أجل تحقيق المساواة بين المرأة والرجل. أسست وأصدرت مجلة "المساواة" النسائية. انتخبت رئيسة المؤتمر العالمي للنساء الإشتراكيات الذي عقد في عام 1907. وبلورت في خطابها أمام المؤتمر الألماني الثاني في كوبنهاغن في عام 1910 اقتراحاً بإعلان يوم الثامن من آذار من كل عام يوماً عالمياً للمرأة. وهو ذاته اليوم الذي يحتفل فيه كيوم عالمي للمرأة. دعت بقوة إلى إنشاء جبهة عالمية لدرء خطر حرب عالمية كانت بواورها تبرز بقوة. ولم تتردد في خطبها في إعلان دعمها لثورة أكتوبر وللينين وللسلطة السوفياتية الجديدة. وحرصت على القيام بزيارات متعددة إلى موسكو لتأكيد تضامنها مع الدولة الإشتراكية الناشئة. وإذ كانت تعاني من مرض عضال فقد ذهبت إلى إحدى مستشفيات موسكو للعلاج. وغادرت الحياة في عام 1933. ووضعت رفاتها على جدار الكرملين إلى جانب قادة ثورة أكتوبر والدولة السوفياتية.

تلك هي شذرات من ملحمة تاريخية لأربعة أبطال شكلوا في حياتهم وحتى اللحظة الأخيرة من حياتهم نموذجاً راقياً للنضال من أجل الحرية والتقدم باسم الإشتراكية.